[redacted]

د. مبارك إبراهيم التّجاني(★★)

مُقَدِّمَة:

الحمد وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الكفر وحده، نحمده ونشكره،حمداً وشكراً يليقان بجلال وجهه وعظيم سلطانه، على نعمة الإسلام والإيمان. ونُصلي ونُسلّم على صاحب الفتح المبين سيِّدنا مُحَمَّد النَّبيّ الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نقف وقفات عند فتح مكة، عبارة عن بعض الدُّروس المأخوذة من إدارته ع لهذه الغزوة فأوّل قاعدة نأخذها أنَّ مَنْ هم في ذمة المسلمين ومَنْ هم في عهد المسلمين سلمهم سلم للمسلمين، وحربهم حرب على المسلمين، لاحظوا نحن نتحدث عن مَنْ هم في عهد المسلمين، فما بالك إذن بشأن المسلم مع أخيه المسلم: (المسلم أخو المسلم)(1)، فما يصيب المسلم في أيّ مكان هو إصابة لأخيه في أيّ مكان آخر. فالنُّصرة مطلوبة خاصّة إذا كثُرَ الظُّلم بالمســلمين: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[النِّساء: ٧٥ ـ ٧٦].

إذن الموقف المتصوَّر إسلاميّاً للمسلم تجاه أخيه المسلم فهو محسوم، فهو أنْ يكون معه في خندق واحد، يعيش معه ما يلاقي،

(★) أصل هذا البحث محاضرةقدّمت بمجلس السِّيرة الأسبوعيّ، بتاريخ ١٤٢٥/٩/٩هـ الموافق له ٢٠٠٤/١٠/٢٣م.

(★★) أستاذمساعد بكلية القرآن الكريم بالجامعة، مدير إدارة التَّعليم الدِّيني بوزارة التَّربية والتَّعليم.

(١) جزء من حديث في صحيح البخاريّ، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه، برقم ٢٣١٠، ٨٦٢/٢. وأخرجه مسلم في باب تحريم الظُّلم، برقم ٢٥٧٩، ١٩٩٦/٤.

ويناصره بكافة ما يستطيع وبكافة ما يحتاج، إنْ احتاج إلى النَّفس فيكون نصره بالنَّفس، وإنْ احتاج إلى المال فتكون النُّصرة بالمال، وتكون بالدُّعاء أيضاً ، ولا شكّ أنَّ كُلّ مسلم يحتاج إلى أخيه المسلم بأنْ يكون معه بالدُّعاء.

سُئِل البرامكة: لِمَ زال ملككم؟ قالوا: بدعوة مظلوم، غفلنا عنها ولم يغفل عنها الرَّبّ، فعسى الله تعالى بدعوة رجل أو بدعوة امرأة أنْ يُغيِّر حال قوم مسلمين من حال إلى حال. لذلك لا بُدّ أنْ نستحضر نصرة إخواننا المسلمين، في هذه الغزوة وفي هذا الحدث من أحداث السِّيرة.

الفائدة الأولى التي تُجنى لنا أنَّ الذين في ذمة المسلمين حتَّى من غير المسلمين والذي هو في عهدهم سلمه هو سلم للمسلمين، وحربه هو حرب على المسلمين، ذلك أنَّ السَّبب الأساس الذي أدَّى إلى أنْ ينطلق الرَّسول ε نحو مكة مخططاً وفاتحاً هو اعتداء قبيلة بكر على قبيلة خزاعة بعون من قريش، مخالفة بذلك لبند من بنود صلح الحديبية، الذي عقده الرَّسول ε مع أهل قريش، فجعل بينهم عشرة أعوام تضع فيها الحرب أوزارها، والذي يدخل في حرز المسلمين لا يتعرَّض له أهل قريش، والذي يدخل في حرز قريش لا يتعرَّض له أهل الإسلام. ولكن أهل الكفر ـ كعادتهم ـ ما داموا لم يعرفوا التَّوحيد، كيف لهم أنْ يحفظوا العهد مع عباد الله تعالى. فقالت بنو بكر أنْ يغيروا على خزاعة، واستعانوا بأهل قريش فأعانوهم، فقتلوا منهم مَنْ قتلوا، وأصابوا مَنْ أصابوا، وحتَّى بعد أنْ لجأ الخزاعيون إلى مكة ظاهر أهل قريش قبيلة بني بكر للنَّيل منهم. وهنا انطلق سيّدهم وشاعرهم عمرو بن سالم إلى الرَّسول ε طالباً النَّصر والعون، ومُنشداً هذه الأبيات:

يا ربَّ إني ناشدٌ مُحَمَّدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتَ ولداً وكنَّا والدا ... ثُمَّ أسلمنا فلم ننزع يدا[1]
أنصر هداك الله نصراً أعتدا ... وأدعو عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرَّدا ... إن سيم خسفاً وجهه تربّدا
في فيلقٍ كالبحر يجري مزبداً ... إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كلاب[2] رصدا
وزعموا أنْ لست أدعو أحدا ... وهم أذلّ وأقلّ عددا

---

(١) في إشارة إلى إحدى جدات الرَّسول ε الخزاعيات.
(٢) كلاب: المكان الذي كان فيه أُمية، وفيه الوكيع من بنو بكر.

هم بيتوها بالوتير هُجّدا وقتّلونا رُكّعاً وسُجّداً

أتى إلى رسول الله ε ـ وحوله الصَّحابة رضوان الله عليهم ـ واستنجد بهذه الأبيات، فأجابه الرَّسول ε قائلاً : (نصرت يا عمرو بن سالم)(١).

وهنا يعلّمنا الرَّسول ε الوفاء بالعهد، خاصّة بالوفاء للضَّعيف، الذي هو في حاجة إلى العون وإلى النُّصرة، وعلى طريقه كان الصَّحابة، سيّدنا أبو بكر الصِّدِّيق في أوّل خطبة بعد الخلافة أرسل للنَّاس: إنَّ الضَّعيف عندي قوي حتَّى آخذ له الحقّ، وأنَّ القوي عندي ضعيف حتَّى آخذ منه الحقّ آخذاً (٢).

هذا الدَّرس من سيّد الخلق النَّبيّ ε (نصرت يا عمرو بن سالم)، ثُمَّ التفت الرَّسول ε إلى الصَّحابة فقال: (كأنّي بأبي سفيان قد جاءكم يشدُّ العقد ويزيدُ في المدة)(٣).

وبالفعل ما هي إلاَّ أيام وأتى أبو سفيان إلى الرَّسول ε معتذراً ، جاء نازلاً في بيت بنته أم حبيبة وحينما أراد أنْ يجلس على فراش الرَّسول ε، طوته عنه، فقـال: يا بنتي أرغبت بي عـن هذا الفراش، أم رغبت بالفراش عني؟ فقـالت: هو فـراش رسـول الله ε، وأنت مُشركٌ نجس: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التَّوبة: ٢٨]، قال: والله قد أصابك بعدي شيء(٤).

هو يقصد الجنون، ولكن الذي أصابها هو الإيمان، الذي أصابها هو الارتباط بالحقّ وبالرَّسول ε بعد أنْ أخذ هذه النِّكاية من بنته، ذهب إلى الرَّسول ε يعتذر، فلم يجبه الرَّسول ε، فأتى إلى سيّدنا أبي بكر علَّه يشفع، فلم يقل له كلمة واحدة، وأتى إلى سيّدنا عمر، فقال عمر: "أتأتيني لأشفع لك عند رسول الله والله لو لم أجد إلاَّ الذَّر لقاتلتكم ولقاتلتكم عليه، فلو وجد فيهم فرصة في قتالهم لقاتلهم"(٥)، وأتى بعضهم إلى سيّدنا عليّ فقال: والله لا أملك لك شيئاً ، فنظر إلى بنته إلى زوج سيّدنا عليّ السَّيِّدة فاطمة

(١) انظر: الرَّحيق المختوم: للمباركفوريّ، نشر دار الوفاء، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ص٢٤١. وسنن البيهقيّ الكبرى، مطبعة دار البناء، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، تحقيق مُحَمَّد عبد القادر عطا.
(٢) سنن البيهقيّ الكبرى، ٣٥٣/٦.
(٣) البيهقيّ: دلائل النُّبوة، ٨/٥، وابن القيم: زاد المعاد، ٣/ ٣٩٦.
(٤) السِّيرة الحلبيّة: لعلي بن برهان الدِّين، طبعة دار المعرفة، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ، ٧/٣.
(٥) فصول من السِّيرة، ٨٧٥/٥، وزاد المعاد، ٣٩٧/٣.

بنت رسول الله ε، وقال لها مشيراً إلى ابنها: هلا حدثتيه أنْ يُجيرنا، فقالت: إنَّ ابني صغير ما بلغ أنْ يُجير، ثُمَّ إنَّه مَنْ يُجير على رسول الله؟

وهكذا رجع أبو سفيان يُجرجر أثواب الخيبة، وهنا عزم الرَّسول ε في مباغتة قريش، وسأل الله تعالى أنْ يأخذ أبصارهم عنهم(١).

ومن هنا نأخذ حكماً ، وهو جواز مباغته العدو إذا نقض العهد، فإذا لم ينقض العهد ليس لنا أنْ نبدأ، ولكن إذا بدأ هو فيجوز مباغتته في أيّ وقت، نحن الآن في كثير من اتفاقيّاتنا التي نعقدها هنا وهنالك يقوم العدو فيغير هنا ويغير هنا، ونستنكر ولا نتحرك، حتَّى نجده قد نال منا نيلاً عظيماً ، متى ما بادر العدو لنقض العهد فإنَّه يجوز لنا أنْ نباغته في أيّ مكان يتبع له.

لذلك قدَّر الرَّسول ε هنا أنْ يباغت، لأنَّ قريشاً هم الذين بدأوا، إذا لم يبدأ العدو بنقض العهد ليس لنا أنْ نبدأ، إذا خفنا من العدو العدول، ولكنه لم يبدأ عملياً : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٨](٢).

يجوز أيضاً أنْ يؤتى العدو في أمره ك ه وفي شأنه ك ه، وفي أهله ك ه، هم الذين شاركوا قبيلة بني بكر، ليس كُلّ أهل قريش، ولكن الرَّسول ε حينما قرَّر أنْ يفتح مكة ك ها ويأخذ قريشاً ك ها.

وهكذا نجد قوماً تبدو من بعضهم بادرة ولم يقصدوا ولا يأخذون بأيديهم، فإنَّ العاقبة تعود لذلك التَّغيير حينما فكَّر نفر منهم أنْ يغدروا بالرَّسول ε، وقرَّروا أنْ يصعدوا على الحائط الذي هو فيه ويرموه بصخرة فيرتاحوا منه، بعد أنْ ذكر الرَّسول ε عن طريق الوحي وغادره مسرعاً لم يطلب هؤلاء فقط ويُلقي عليهم عقوبة، وإنَّما أجلى يهود بني النَّضير ك هم؛ لأنَّ هذا الأمر يشبههم ك هم، ويصدق عليهم ك هم ولأنَّ هذا هدفهم ك هم(٣).

---

(١)انظر: البيضاويّ، عبد الله بن عمر مُحَمَّد بن علي، الشّيرازيّ، البيضاويّ، ١١٧/٣.

(٢)انظر: التَّسهيل لعموم التَّنزيل: مُحَمَّد بن أحمد الغرناطيّ الكلبيّ، طبعة دار الكتاب العربيّ اللُّبنانيّ، ١٤٠٣هـ، ٦٤/٢.

(٣)الشَّيخ مُحَمَّد الأمين الشّنقيطيّ: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبعة دار الفكر، ١٤١٥هـ، ١٥/٨.

وكذلك بنو قريظة حينما أعلنت طائفة لم تسند الرَّسول ε، هذه الطَّــائفة لم يقتلها وحــدها، وإنَّما قتل جميع مقاتلي بني قريظة : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

هذه الأحكام نأخذها من ممارسات الرَّسول ε في فتح مكة، كذلك مِمَّا يُعلِّمنا له الرَّسول ε ونزل به القرآن، عدم جواز موالاة الكافرين، حاطب بن أبي بلتعة صحابيّ جليل، شَهدَ بدراً ، والرَّسول ε يُعِدُّ في خفاء ليأخذ الله تعالى عنه قريش، ولكنَّ حاطب تأخذه عاطفة تجاه أسرته، بين أهل مكة فيريد أنْ تكون له يد عليهم، فيُقرِّر أنْ يبعث رسالة خفيّة إلى أهل قريش يخبرهم أنَّ الرَّسول ε يُعِدُّ في طريقه إليهم، وبالفعل كتب الرِّسالة، واستأجر ظعينة (امرأة) لا يُشك في أمرها وعهد إليها بالرِّسالة، وأوضح لها إلى مَنْ تُسلّم هذه الرِّسالة.

والرَّسول ε يحيطه ربه بما يحيطه، قال لسيّدنا عليّ ولصحابيين جليلين معه، قال لهم الثَّلاثة: (اذهبوا في طريقكم إلى مكة في روضة كذا ستجدون ظعينة، أي امرأة مسافرة، عندها خطاب ايتوني بهذا الخطاب).

أتى هؤلاء الثَّلاثة في يقين؛ لأنَّهم يعلمون أنَّه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النَّجم: ٣-٤]، ووصلوا إلى الرَّوضة ووجدوا الظَّعينة، وقالوا لها في ثقة وثبات: أخرجي الخطاب، قالت: ليس معي خطاب. قالوا:لتخرجنّ الخطاب أو لنُلقيَّ الثِّياب، فلمَّا رأت فيهم الجدية، طلبت منهم أنْ يعرضوا، فأخرجته من بين ضفيرة شعرها وسلمته لهم.

حينما قُدِّم الخطاب إلى الرَّسول ε فتحه ووجده من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل قريش، دعا حاطب وسأله عن خبره: (أكفرٌ بعد إيمان أم ماذا؟) فأقسم حاطب أنَّه لم يكفر ولم يُبدِّل، ولكنه خاف على أهله بين أهل قريش، فأراد أنْ تكون له يد عليهم حتَّى يحسنوا إلى أهله، وصدَّقه الرَّسول ε في ذلك.

ولم يرض ذلك سيّدنا عمر بن الخطاب τ فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النَّبيّ ε: (يا عمر لعلَّ الله اطّلع على أهل

بدر فقال: افعلوا ما شئتم)[(١)].

ولكن كانت الآية الحاسمة: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ]** [الممتحنة: ١].

وها هو يبيّن لنا فضل السَّبق في أعمال الخير، فأهل بدر كانوا أهل سبق في الإيمان، وأهل سبق في التَّصديق، وأهل سبق في الإخلاص، وأهل سبق في الجهاد وفي الصَّبر والثَّبات، لذلك نالوا هذه المكانة: (لعلَّ الله اطّلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم).

قال بعض الغلاة من هذا التَّعليق: إذا ثبت للمسلمين وهم في حالة حرب أنَّ بعضهم يتعامل مع العدو لهم أنْ يقطعوا رأسه، لماذا؟ قالوا: لأنَّ الرَّسول ε هنا احتج على عمر بأنَّ هذا من أهل بدر، وأنَّه لعلَّ الله اطّلع على أهل بدر، فقال: افعلوا ما شئتم ، هذا استنباط واستنتاج استنتجه بعض العلماء، وعلَّه يتعامل على أساسه أخوة لنا في العراق اليوم.

السَّبق في كُلّ شيء له خصوصيته، السَّبق في المساجد، والسَّبق في مجالس العلم، والسَّبق بالإنفاق، والسَّبق بالجهاد، وفي كُلّ شيء، وعلى هذا اقرأوا تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ١٠-١٢][(٢)]، والله تعالى نبَّه إلى لفظ المسارعة: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣].

إذن دائماً نحمل أنفسنا على أنْ نكون من أهل المسابقة والمسارعة في مختلف أعمال الخير.

ننطلق ونذهب إلى حلقة أخرى من حلقات فتح مكة، وسيّد الموقف هنا هو أبو سفيان بن حرب، الرَّسول ε بعد أنْ عزم على المسير وجهّز

(١) الرُّوض الأنف، ٥١/٤.

(٢)انظر: التَّفسير الكبير: لفخر الدِّين الرَّازيّ، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، ط/١، ١٤٢١هـ، ١٢١/٤.

جيشه واستنفر المسلمين من حوله وبلغوا العشرة آلاف، وانطلقوا نحو مكة. وأبو سفيان كانت تحدثه نفسه من أنَّ اعتداءهم على بني خزاعة لن يفوته الرَّسول ε وقد أصبح المسلمون في قوّة وفي عزة وفي منعة. لذلك تحرك في مجموعة من قومه ليلاً في طريقه نحو المدينة ليعرف الخبر، وإذا به بنيران عظيمة، وبدأ يتساءل نيران من هذه؟ ومَنْ يقصدون في هذه الأثناء؟ العباس بن عبد المطلب أتى يُريد أحداً يوصيه إلى أهل قريش أنْ يأتوا إلى الرَّسول ε مستسلمين، فإنَّهم لا قِبَل لهم به، أبو سفيان يتحدَّث والعباس يسمع، فقال أبو سفيان: قال أبو الفضل أتاه وقال له: اركب، والله قد أتاكم مُحَمَّد بما لا قِبَل لكم به، فلننطلق إلى رسول الله ε قبل أنْ يقتلنا قاتل، لما علم أنَّ هذه من وراء المسلمين، وأنَّهم أتوا يقصدون مكة، اقتنع العباس وركب معهم وأردفه العباس على فرسه والوقت ليل[١].

أتى العباس ينطلق في وسط المسلمين، ونظر إليه سيّدنا عمر من بعيد، فانطلق نحو أبو سفيان قائلاً : لا نجوت إنْ نجا ولم يصلهم إلاّ وقد وصل العباس إلى رسول الله ε وقال: قد أجرتهم يا رسول الله، قبل الرَّسول ε هذه الإجارة، وعمر يتحسَّر لأنَّه لم يلحقهم، وقال النَّبيّ ε للعباس: (اسأل به وائتني به صباحاً)[٢].

في صبيحة اليوم التَّالي أتى العباس ومعه أبو سفيان، فقال الرَّسول ε: (ويحك يا أبا سفيان، أما آن لك أنْ تشهد ألا إله إلاّ الله)؟

وخرج منه المسلمون خفية متسللين ومسترشدين، وهاهو ذا يراهم ولا يرمي آخر لهم، فقالوا: ويحك يا أبا سفيان، أما آن لك أنْ تشهد ألا إله إلاّ الله وأنَّ مُحَمَّداً رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أفضلك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننتُ أنْ لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعده. ثمَّ سأله رسول الله ε سؤالاً آخر: (ويحك يا أبا سفيان أما آن لك أنْ تشهد أنِّي رسول الله) فقال: ما أفضلك وأكرمك وأوصلك، أما هذه ففي نفسي منها شيء. قال العباس: ويحك يا أبا سفيان، أسلم تسلم، قال: أشهد ألا إله

(١) الخصائص الكبرى: لجلال الدِّين السُّيوطيّ، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٥هـ، ص ٤٣٦.

(٢) البيهقيّ: دلائل النَّبوة، ٣٣/٥.

إلاَّ الله، وأشهد أنَّ مُحَمَّداً رسول الله[1].

وهنا نأخذ درساً عظيماً ، وهو ليس بالضَّرورة أنْ يبلغ الإنسان في أوّل وهلة وأوّل لحظة تمام الإيمان، العباس أراد لأبي سفيان أنْ ينطق بالشَّهادتين، حينما ينطق بالشَّهادتين حتَّى يغلب نفسه على الجزء الآخر، ولكن حينما ينطق فإنَّه بذلك يتهيأ لأنْ يجلس مع المسلمين، وإنَّه بذلك يسمع من المسلمين، ويُعدَّ منهم ويكتمل الإيمان بعد ذلك ويزداد. وهذا ما قد كان؛ بل قد تحقَّق الإيمان في قلبه، وقبل أنْ يرجع الرَّسول ε أمر العباس -بعد أنْ نطق أبو سفيان بالشَّهادتين- أنْ يجعله عند المضيق في الوادي وأنْ تمر عليه الكتائب كلّها.

فوقف أبو سفيان والعباس بجواره، ويمرّ المسلمون فصيلة فصيلة، وكتيبة كتيبة، وقبيلة قبيلة، وبلدة بلدة، ويسأل أبو سفيان: مَنْ هؤلاء؟ ويجيبه العباس، حتَّى أتى قوماً في قوّة شديدة، وفي بأس شديد لا يُرى منهم إلاَّ الحدق والحديد، سأل أبو سفيان: مَنْ هؤلاء يا عباس؟ قال: هذا رسول الله ε في المهاجرين والأنصار، استغرب الرَّجل وتعجّب، فقال: لقد أضحى ملك ابن أخيك عظيماً ، قال العباس: يا أبا سفيان إنَّه ليس الملك، إنَّها النُّبوة، إنَّها النُّبوة، فصدَّق أبو سفيان بهذه النُّبوة، وامتلأ قلبه إيماناً وتصديقاً [2].

ونأخذ هنا درساً آخر وهو أنَّ القلوب بين يدي الرَّحمن يقلّبها كيف يشاء، لا نيأس من عاصٍ ، ولا نيأس من كافر، وتبلّغ الدَّعوة للجميع، لا نيأس من نصر، وننتظره من الله تعالى في أيّة لحظة: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢].

أبو سفيان الذي ذهب وخرج مع قريش ليعرف خبر النَّبيّ ε وأصحابه ليُعدّ العدة والرِّجال، فإذا به يأتي قافلاً وراجعاً مؤذناً في النَّاس: إنَّ مُحَمَّداً أتاكم بما لا قِبَل لكم به، أتت زوجه هند بنت عتبة وهو يُحدّث النَّاس عن القوّة وعن ما رآه قالت: اقتلوا هذا الكميت الفسل[3]، أي هذا

(١) السِّيرة النَّبويّة: لابن هشام، تحقيق طه عبد الرَّؤوف سعد، طبعة دار الجيل، بيروت، ط/١، ١٤٠١هـ، ٦٠/٥.
(٢) الرَّوض الأنف، ١٥٧/٤.
(٣) زاد المعاد، ٤٠٤/٣.

السَّمين الجبان، قال: لا تغرَّنكم هذه، والله أتاكم بما لا قِبَل لكم به، ثُمَّ أدَّن فيهم: مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، ما تُغني عنا دارك، قال: ومَنْ دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومَنْ دخل داره فهو آمن(١).

فانطلقوا إلى دورهم، وإلى دار أبي سفيان، وإلى المسجد الحرام.

من هذا الموقف نأخذ درساً وهو: أنَّه بالتَّضحية وبالإيمان وبالصَّبر وبالثَّبات يتبدّل الضَّعف إلى قوّة،وتتبدّل القلّة إلى كثرة، ويتبدّل الذُّل إلى عزّ، انظر إلى الرَّسول ε وصحابته كيف كانوا في البداية، وكيف هاجروا من مكة، وكيف أُخرجوا، وكيف قُتلوا، وكيف عُذبوا، وانظر كيف يكونون حين خرجوا، وانظر إليهم كيف أتوا إلى مكة فاتحين عزيزين مكرمين، فبالصَّبر وبالتَّضحية وبالإخلاص وبالإيمان وبالثَّبات، أيضاً حازوا النَّصر والتَّمكين(٢).

من الدُّروس التي نأخذها هنا براءة نفوس المسلمين وصفاؤها، لا يتعاملون بالحقد وبالحسد وبالانحطاط، أبو سفيان ـ الذي كان أحد قادة قريش والذي فعل بالمسلمين الأفاعيل ـ أوّل ما ينطق بالشَّهادتين يُقرِّر الرَّسول ε إكرامه وتشريفه، فيجعل داره صنواً في مسألة الأمن مع البيت الحرام: (مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن).

فنحن في حاجة إلى أنْ نصفّي نفوسنا تجاه الجميع من الأحقاد ومن الحسد ومن الغِل ومن البغضاء، وأكثر المشاكل التي بين المسلمين اليوم تنجم عن هذه الأمراض الفتاكة بالمجتمعات والجماعات.

كذلك نأتي لتأمُّلات في كيفيّة دخوله ε مكة؛ إنَّ في كُلّ خطوة كان يُعلّمنا دروساً ، فيما رواه البخاريّ أنَّ رسول الله ε وهو يُرجِّع سورة الفتح اللّحظات التي يدخل فيها مكة، كان يُرجِّع ويترنّم بسورة الفتح، عادة الأبطال والقادة في لحظات النَّصر كثيراً ما ينسون الله تعالى، ويعتقدون أنَّهم هم سبب هذا النَّصر وأنَّهم سبب هذه النَّجاح، ولكن الرَّسول ε يعلّمنا هنا أنْ نردّ كُلّ نصر وكُلّ فوز وكُلّ فلاح إلى الله تعالى، لم يقل: فكّرنا،

(١) السِّيرة النَّبويّة، لابن هشام، ٥/٦٠.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤٠١ هـ، ٣/٢٠٢.

ولم يقل: قوينا أنفسنا، ولم يقل: حرَّرنا، ولكن قال: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ ﴾ [الفتح: ١] يُردِّد هذه الآيات رداً للأمر إلى الله تعالى، واعترافاً بحوله وقوّته وقدرته: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

كذلك إنْ كان القادة في هذه اللَّحظات يرفعون رؤوسهم، ويرفعون أصواتهم، ويأخذهم العُجب، ويأخذهم الغرور، ويحسون أنَّهم هم هم، الرَّسولεفي هذه اللَّحظات وهو يدخل مكة وجميع الأنظار ترقبه، كان منحنياً على دابته، حتَّى كاد عقنونه (مقدمة الأنف) أنْ يلامس أوسط راحلته تواضعاً تعالى.

فَمِمَّا علّمنا له الرَّسول ε حرصه الشَّديد على حقن الدِّماء، لم يقل: هؤلاء الذين فعلوا بنا، واليوم قد مُكِنتم منهم فلتفعلوا بهم الأفاعيل، وزّع الجيش يدخل مكة من أنحائها كُلِّها، حتَّى لا يفكر أهل مكة في المواجهة، ثُمَّ قال لهم: (لا تقاتلوا إلاَّ مَنْ يقاتلكم)[1]. وبالفعل خضع له الجميع، ولم تكن مجموعة مواجهة إلاَّ مجموعة خالد بن الوليد، واجهتهم مجموعة كانت تُعِدُّ لقتل الرَّسول ε، منهم حماس بن قيس بن خالد كان يُعِدُّ السِّلاح ويصلحه من وقت لآخر، فسألته امرأته، فقالت له: ماذا تريد؟ قال: أريده لمُحَمَّد وأصحابه. قالت له: لن تتمكَّن منه. قال لها: سأقدمك بعضهم، أي سأتمكّن منهم وآتي ببعضهم أذلة كي يكونوا في خدمتنا في البيت، هذا كان من ضمن المجموعة التي واجهت خالد بن الوليد، وكانت بقيادة عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، هذا الرَّجل وهو يُصلح أسلحته كان يترنّم بأبيات:

إنْ يكمل اليوم فما لي علّة ... هذا سلاحٌ كامل وإلا
وذو غرارين سريع السَّلا

يقلّي ويترنّم بهذه الأبيات معبِّراً عن استعداده للرَّسول ε، حتَّى خرج مع المجموعة التي أرادت المواجهة، وبعد أنْ قُتِلَ منهم مَنْ قُتِلَ، وفرَّ منهم مَنْ فرَّ كان هو ضمن الفارّين أتى إلى زوجته وقال: أغلقي عليَّ

(١) انظر: وصيته حين غزوة مؤتة (اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوا الله وعدوكم بالشَّام، وستجدون وستجدون منها رجالاً في الصَّوامع معتزلين فلا تتعرَّضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناءً). السِّيرة الحلبيّة، ٧٨٧/٢.

الباب، ذكَّرته بتلك الأبيات التي كان ينشدها، فقال لها: إنك لو شاهدت يوم الخندق (المكان الذي كانت فيه المواجهة بينهم وبين مجموعة خالد بن الوليد:

إنَّك لو شهدت يوم الخندقة إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
واستقبلتنا السُّيوف المسلمة يُقطعّن كُلّ ساعدٍ وجمجمة
ضرباً فلا تسمع إلاَّ غمغمة لهم نهيت خلفنا وهمهمة
لم تنطقي باللَّوم أدنى كلمة(١)

أي اعذريني في هذا الأمر، فكان الرَّسول ε حريصاً على أنْ تحقن الدِّماء، ولَمَّا أخبر بمن قتل وكانوا حوالي عشرين أو يزيدون قليلاً استنكر ذلك، ولَمَّا علم أنَّهم بدءوا بالمقاتلة وبالمواجهة، قال: (قدَّر الله وما شاء فعل).

انظروا إلى سماحة الإسلام في اللَّحظة التي يكونون فيها متمكنين لم يكن التَّفكير في الانتقام وفي إراقة الدِّماء، ولكن كان التَّفكير في أنْ يكونوا سالمين، وأنْ يأتوا إلى الله تعالى مسلمين، لذلك الرَّسول ε كان حريصاً على هذا الأمر، قال: (قدَّر الله وما شاء فعل).

من الدُّروس التي نأخذها أنَّ الباطل لا محالة إلى زوال، انظروا إلى قريش أين كانت، وانظروا إلى الأصنام أين كانت تُعبد، وكيف كان يُتقرّب إليها، هاهي ذي دولة قريش تزول، وهاهي الأصنام يسقطها الرَّسول εواحداً واحداً ، ويقول: (قُل جاء الحقُّ وزُهقَ الباطل، إنَّ الباطلَ كان زهوقاً)(٢).

وهذا المصير هو مصير كُلّ الأقوام المستكبرة الكافرة، في السَّابق أو في الحاضر أو في المستقبل في الماضي، اقرأُوا قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا

(١) أبيات حماس بن قيس هذه أوردها المباركفوري في الرَّحيق المختوم، ص٣٤٧، وابن قيم في: زاد المعاد، ٤٠٥/٣.
(٢) دلائل النُّبوة: للأصفهانيّ، تحقيق مُحَمَّد مُحَمَّد الحداد، طبعة دار طيبة، الرِّياض، السُّعوديّة، ط/١، ١٤٠٩هـ. وانظر:الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ε: لأبي الرَّبيع سليمان بن موسى، ٢٢٦/٢.

ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وإن شاء الله تعالى فإنَّ قوى البغي والعدوان التي تتمثَّل اليوم لسان حال فرعون: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النَّازعات: ٢٤]، ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩]، فإنَّ مصيرها هو نفس المصير عاجلاً أم آجلاً : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧]. زالت دولة قريش، وزالت قدسيّة الأصنام، ووقف الحقّ شامخاً مرفوع الرَّأس والجبين، وها هو ذا الرَّسول ε يحشد له أهل قريش كلهم ويخطب فيهم: (لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، كُلّ مفخرة أو دم أو مال في الجاهليّة فهو تحت قدميّ هاتين إلاَّ ما كان من سدانة البيت وسقاية الحاج)[1].

كُلّ ما هو من مظاهر الدُّنيا مِمَّا يتباهى به ويتفاخر، أعلن لهم في ذلك اليوم أنَّه: (تحت قدميَّ هاتين)، وأنَّه لا مجال إلاَّ لذكر الله تعالى،وإلاَّ للارتباط با تعالى،وإلاَّ لسِّقاية الحجّاج وإلاَّ للأعمال الصَّالحة.

ومن هذا القبيل: (يا معشر قريش إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعصُّبها بالآباء، النَّاس من آدم، وآدم من تراب، وتلا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ثُمَّ واصل خطبته: (يا أهل مكة ما تظنون إنّي فاعلٌ بكم؟) قال الذين هم في عمره: أخٌ كريم، وقال الذين هم في عمر آبائه: ابن أخ كريم، فقال ε: (اذهبوا فأنتم الطُّلقاء).

فلمَّا رأوا هذا الكرم وهذه السَّماحة وهذا الجلال المُحَمَّديّ، انطلقوا يشهدون ألا إله إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّداً رسول الله، وأدّوا البيعة إلى النَّبيّ ε من الرِّجال ومن النِّساء.

(١) دلائل النُّبوة: للأصفهانيّ، ٨٥/٥.

وهكذا كانت البيعة من الرِّجال ومن النِّساء لا عن إكراه ولكن عن إيمان فلقد رأوا ما كان عليه الرَّسول ε وأصحابه في السَّابق، وما وصلوا إليه الآن، وتبيّن أنَّ ذلك لا يمكن أنْ يكون إلاَّ بهذا الدِّين، وأنَّ هذا الدِّين ليس إلاَّ من عند الله تعالى، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وصوَّر القرآن هذا المشهد: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النَّصر: ١-٣].

ها هو ذا الرَّسول ε الذي خرج متخفياً ومطلوبٌ القبض عليه حيّاً أو ميتاً في أعلى المنعة، ويتلقى البيعة من الجميع، وها هو ذا بلال الذي كان يُجرّ ولا يجد غير أنْ يقول: أحدٌ أحَدٌ ها هو ذا يصعد في أعلى مكان، ويعلن: الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إلا الله وأنَّ مُحَمَّداً رسول الله.

وفي هذه اللَّحظات واحد من أهل مكة تحدّثه نفسه بأنَّ مُحَمَّداً الآن منشغلٌ بالبيعة، وبعظمة الانتصار، وأنَّ أصحابه كذلك فرحون، وأنَّه يمكن له أنْ يقتله، فأتى فُبالة بن عمير بن الملوح، متجهاً نحو النَّبيّ ε ومعه سلاح يخفيه ليقتل به النَّبيّ ε، والنَّبيّ ε يخطب ولمَّا رآه متجهاً نحوه، قال: (أفبالة؟) قال: نعم، قال: (ماذا كنت تحدّث به نفسك؟) قال: لا شيء، أذكر الله. قال الرَّسول ε وهو يبتسم: (استغفر الله يا فُبالة)، ووضع يده على صدره، قال فُبالة: والله ما رفع يده إلاَّ وكان أحبّ خلق الله إليَّ(١)، فامتلأ قلبه محبة للنَّبيّ ε وإيماناً بدينه، فرجع ومرَّ على امرأة كان يجالسها وتؤانسه، فدعته إليها، فقال:

قالت: هلمَّ إلى الحديث، فقلت: لا يأبى عليك الله والإسلامُ
لو قد رأيتِ مُحَمَّداً وقبيله   بالفتح يوم تكسر الأصنامُ
لرأيتِ دين الله أضحى بيِّناً   والشَّرك يغشى وجهه الإظلامُ

وصلَّى الله على سيّدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً كثيراً.

---

(١) ابن قيم: زاد المعاد، ٤١٢/٣.